الباب الثاني

ماذا نقرأ؟

WHAT WE READ

- الأدب والقيمة والأعمال الأدبية المرجعية
- دراسة شكسبير

الفصل الخامس

الأدب والقيمة والأعمال الأدبية المرجعية
Literature, Value and the Canon

- هل يمكن تعريف الأدب؟
- ما المقصود بالقيمة الأدبية؟
- ما المقصود بالأعمال الأدبية المرجعية The Canon؟
- كيف تؤثر الأعمال المرجعية على أسلوب دراستك؟

إذا أردنا مراجعة أسلوب قراءتنا، فعلينا أن نفكر جيداً فيما نقرأ، حيث أصبحت المناقشات الخاصة بالنصوص التي يجب أن تقرأها كدارس للأدب –وحتى مفهوم الأدب ذاته– من الموضوعات المهمة للغاية في دراسات الإنجليزية.

هل يمكن تعريف الأدب؟
Can Literature be Befined?

عندما نذهب إلى محل لبيع الكتب أو إلى مكتبة فإننا نعرف مسبقاً ما هو موجود في قسم الأدب، لكن إذا حاولنا الإجابة على سؤال: "ما هو الأدب؟" لا يظهر لنا تعريفاً مُرضياً على الفور، فهناك عدد لا حصر له من الاستثناءات لكل قاعدة. فإذا عرَّفنا الأدب مثلاً بأنه "الخيال"، فأين نصنف الكتابات الواقعية القائمة على حقائق كالسير الذاتية أو المسرحيات والروايات التي تجسد الأحداث التاريخية؟

وكيف سنصنف القصائد التي تحاول كشف الحقيقة "العليا" وليس مجرد الخيال؟ أما إذا قلت بأن الأدب هو "تمثيل وعرض للعالم من حولنا" (أي أنه مجرد "تقليد" mimetic كما يشير المصطلح الفني لذلك) فكيف ستتعامل مع القصائد والمسرحيات والروايات السريالية surreal novels التي لا تمت للعالم بصلة؟ ألا تتفق معي أن كتابات أخرى كالكتابات التاريخية أو العلمية تجسد العالم؟ ومن جانب آخر، لا يقتصر الأدب على "سرد القصص" فقط، فكيف نفرق بين الأدب وكتاب طبي "يحكي قصة" ظهور أعراض مرض ما، أو لعالِم يقص ما يحدث في تجربة ما لقياس الأشعة الكونية؟

قد تذهب إلى أن الأدب هو ما "يحرك" مشاعرك و"يمتعك" عقلياً، ولكن كيف تفسر عدم تأثرك برواية قرأها زميلك وأعجب بها بشدة في حين تصفها أنت "بالأدب الركيك"؟ لكن هل تستطيع أن تجزم أنها لم تكن أدباً؟ أما إذا لم تكن ممن يؤمنون بضرورة وجود رسالة للأدب، فكيف ستتعامل مع الكتابات التي لا رسالة واضحة من ورائها؟ ألا يمكن لك أن تجزم بأثر أغنية ما عليك أو حتى "ساندويتش" مثلما أثر الكلام المكتوب عليك؟

من الأسهل إذن أن نفهم الأدب ليس من خلال تعريف محدد بل على أنه شيء "ينفلت" أو "يهرب" من أي محاولة لقولبته داخل تعريف واحد، فهو ينـــزلق من بين أصابعك إذا حاولت أن تعطيه معنى واحداً كانزلاق الماء إن حاولت الإمساك به. وربما لا يكون الأدب "شيئاً" محدداً على الإطلاق مما يفسر تفلته عند محاولتك تعريفه وتصنيفه. وعلى أي حال، فإن القراءة عملية لك فيها نصيب لذا فإن أفضل ما نصفُ به الأدب أنه كالفعل أي ينطوي على "فعل ما" و ليس كاسم أو شيء ما.

ما يجعل الأمر أكثر تعقيداً هو اختلاف خصائص النصوص المسماة "بالأدب" بشكل مستمرً على مر العصور. فعندما عرض روب بوب Rob Pope لمصطلح الأدب في كتابه "كتاب الدراسات الإنجليزية" The English Studies Book أورد أن كلمة (الأدب) لم تستخدم أول الأمر (إبان أو أواخر القرن الرابع عشر) لتشير إلى نوع معين من النصوص، بل كانت تشير إلى ما نسميه الآن "الإلمام بالتراث" أو نوع من " الدراية بالكتب"، ثم دل المصطلح في القرن التاسع عشر على مجموعة كتابات تضمنت التاريخ والتراجم والفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم وغيرها الكثير، أي أنه كان يعني أي شيء مكتوب في موضوع ما. ومازالت الكلمة تحمل نفس المعنى إلى يومنا هذا، فمازلنا نقول عن مجموعه الكتابات الخاصة بالتقدم التكنولوجي "التراث العلمي". إلا أن هناك مصطلح الأدب المستقل المعروف والذي يشار له في الإنجليزية بحرف (L) كبير وهو ما يعني شيئاً مختلفاً عن تلك الكتابات.

تقودنا الكتابات الفلسفية والتاريخية حول ماهية الأدب إلى سؤال جوهري يواجهه كل دارسي الإنجليزية: إذا لم يتسم موضوع الأدب بالوضوح والتحديد، فكيف يتسنى لك تحديد النصوص التي ستقرأها؟ على العموم لا حصر لعدد الكتب التي يقرأها المرء طوال حياته، فالواقع أننا نختار نصوصنا الأدبية بأنفسنا أو "يختارها لنا" القائمون على وضع مقررات الإنجليزية الدراسية بإيعاز من فكرة مسبقة لديهم ألا وهي القيمة الأدبية للنص.

ما المقصود بالقيمة الأدبية للنص؟
What is Literary Value?

غالباً ما نتحدث عن الأدب ونعني بذلك المصطلح ذا الحرف الكبير(L) والذي يتصل بصورة مباشرة بفكرة إصدار الأحكام على قيمه نص ما، فكثيراً ما يقول الناس: "يا لها من قصه رائعة ! إنها الأدب بعينه"، أو يقولون: "إنها مجرد قصة بوليسية أو قصة مرعبة أو قصة حب romance وليست أدباً خالصاً". من هذا المنطلق فإن الأدب لا يعني مجرد كلمات على صفحات بل هو نمط كتابي ذو قيمة عالية وأهمية كبيرة لذا أَلِفَ الناس أن كل من يدرس الأدب يقرأ نصوصاً "عظيمةً" فقط أو بالأحرى نقول أنه يقرأ الأدب ذو الحرف (L). وهناك قوائم "بروائع الأعمال الأدبية" التي يجب أن نقرأها ونعجب بها تعرف بالأعمال الأدبية المرجعية canons وهو ما يفسر تكرر دراسة نفس الروايات والقصائد والمسرحيات في مقررات الأدب واختباراته. مؤدى ذلك كله هو أن دراسة الأدب الإنجليزي تعني قراءة ودراسة وتحليل تلك الأعمال الأدبية المرجعية المؤثرة بشكل مباشر على مقرراتك الدراسية واختباراتك ونتائجك وكل ما يتعلق بدراستك للإنجليزية، فمازال محتوى الأعمال الأدبية المرجعية ومعايير اختيار نصوصها قضايا شائكة للغاية. لكن ما المقصود بالأعمال الأدبية المرجعية؟

ما المقصود بالأعمال الأدبية المرجعية؟

What is the Canon?

نشأة الأعمال الأدبية المرجعية The Origins of the Canon

لم يتحدد أصل فكره الأعمال الأدبية المرجعية، فالمصطلح قد ظهر في بادئ الأمر في الكنيسة الكاثوليكية التي اضطرت عام ١٥٤٦م في مجلس الوحدة الكنسي[١]

(١) هو المجلس التاسع عشر للوحدة بين مختلف الكنائس الكاثوليكية ولقد عقد في الكنيسة الرومانيـــة في الفترة من ١٥٤٥-١٥٦٣م وصدر عنه قرارات حاسمة أحيت دور الكنيسة الرومانية في ربوع أوروبا كلها.

Council of Trent لتحديد بعض النصوص كمصادر صحيحة "لوحي السماء" مما أعطى تلك النصوص صفة "قانونية" أو "مرجعية" دون سواها وذلك بعد أن ظهر عدد من النصوص على لسان يسوع المسيح وحواريه وكذلك النصوص العبرية المقدسة وكلها يزعم أنه الأصل والأهل للثقة؛ لذا كان هدف ذلك المجلس هو وضع قائمة بالنصوص الدينية الموثوق بها كي يتبعها الكل كمصدر للتشريع، ثم لجأ علماء اللغة في القرن الثامن عشر إلى استعارة المصطلح "مرجعي" لتضفي صفة "الثقة والمشروعية " على نصوص بعينها عند دراسة اللغة خاصة لحدوث تحريفات كثيرة بالنصوص الإغريقية والرومانية، مما حدا بهؤلاء العلماء إلى تحديد نصوص "مرجعية" للكتابات الإغريقية والرومانية الصحيحة.

قام شعراء وكتاب عصر النهضة (١٤٥٠-١٦٥٠م تقريباً) بإعداد قوائم مشابهه لأهم الأنواع أو الأجناس الأدبية (يقصد بالجنس الأدبي "نوع" النص)، وبالفعل لدينا الآن أجناس أدبية كثيرة تقسم حسب محتوى النص وليس شكله، فمثلاً نجد في أي متجر لبيع الكتب أرففاً لأنواع الرواية المختلفة كالقصص البوليسية والرومانسية والخيال العلمي وقصص الفانتازيا، وقد نجد تفاصيل أكثر لتلك الأنواع، فمثلاً رواية "الحرم الجامعي" campus novel هي نوع من الروايات تتخذ من الجامعة مسرحاً لإحداثها وكذلك القصص البوليسية التي يكون البطل فيها خبيراً قانونياً في العادة. ولقد جرت العادة في السابق أن تُستبعد كثير من أنواع الرواية من المراجع التقليدية لاعتمادها على "الخيال" على الرغم من عدم وجود سبب لادعاء أن رواية الخيال العلمي مثلاً لم تحظ بنفس الإثارة والمتعة كالرواية "الأدبية"، فكان ذلك المنحى يتجاهل حقيقة أن لكل نوع أدبي خصائصه العامة وجوانب الحبكة والأسلوب الخاصة به وهي خصوصية تظهر جلياً في محتوى النص

(فأنت تتوقع حدوث جريمة قتل في رواية بوليسية أو ربما زواج في نهاية مسرحية كوميدية) وأسلوبه (كالأسلوب المكثف المختصر في قصه بوليسية متلاحقة الأحداث) وأحياناً ما نجد مزيجاً من تلك الخصائص في بعض النصوص لإحداث أثر ما في القارئ. لكن الخصائص المهمة لنا اليوم لم تكن على نفس القدر من الأهمية في مهدها إبان عصر النهضة، فيوضح مثلاً الاستير فاولر Alastair Fawler في كتابه "أنواع الأدب" Kinds of Literature كيف عكف الشاعر الإنجليزي السير فيليب سيدني Sir Philip Sidney (١٥٠٤-١٥٨٦م) على إعداد قائمة تصنف الشعر إلى أنواع: الشعر الملحمي epic poetry والشعر الغنائي lyrical poetry والشعر الكوميدي الساخر comic poetry والشعر التهكمي satiric poetry والشعر الرثائي elegiac poetry والشعر الرومانسي romantic poetry والسونيتة الرعوية pastoral sonnet وشعر الحكمة epigram مانحاً الشعر الملحمي مكانة عظمى لسنوات طويلة على حساب قصائد الحب القصيرة الأخرى التي اصطبغت بصفة الزوال. وبحلول القرن الثامن عشر تعالت أصوات تنادي ليس فقط بالحكم على قيمة نوع ما من الشعر بل وقيمة كاتب بعينه، فها هو جوزيف وارتن Joseph Warton(١٧٢٢-١٨٠٠م) يعطي أهمية كبرى "لشعرائنا الثلاثة العظام: سبنسر Spenser وشكسبير Shakespeare وملتون Milton". ويلاحظ هنا أن كلمة شعرائنا تشير إلى ارتباط القيمة الأدبية بالنزعة القومية المتنامية آنذاك.

تقاربت أفكار المصداقية والقيمة والمرجعية والهوية القومية بشكل أكبر في القرن التاسع عشر، حيث كُثر طرح القصائد الأكثر ذيوعاً وشهرةً آنذاك وأشهرها كتاب "المجموعة الذهبية للشعر الإنجليزي"Golden Treasury of English Verse (١٨٦١م) لفرانسيس تيرنر بالجراف Francis Turner Palgrave (١٨٢٤-١٨٩٧م)

ثم أعيد طبعه وتنقيحه مراراً حتى يومنا هذا. وكما هو واضح من عنوان الكتاب، فإن له سلطة الحكم على اختيار القصائد التي يراها قراؤها أنها الأكثر قيمة، تماماً مثلما للبنك المركزي سلطة اتخاذ قرارات مالية نيابة عن الدولة نظراً لما لذلك البنك من مرجعية تتعلق بأغلى شيء لدى الشعب ألا وهو النقود. ومن ثم تحتوي هذه المجموعة الذهبية على أغلى القصائد لدى قرائها.

يقول بالجراف على أولى صفحات كتابه أن هدفه هو "إدراج...أفضل القصائد الغنائية والأغنيات الأصيلة المكتوبة بلغتنا لشعراء عباقرة راحلين -الأفضل فقط." وتجدر الإشارة هنا إلى استخدم بالجراف لمعيارين للحكم على ما يدرجه وما يستثنيه من نصوص، هما نوعية الشعر و"عبقرية" الشاعر، فنجده قد استثنى القصائد التعليمية didactic poems والأزجال خفيفة الظل humorous poems وكذلك الأشعار القصصيةnarrative poems (التي تحكي قصة فقط) في حين أدرج القصائد القائمة على ما أسماه "فكرة أو شعور أو موقف ما". لكن يجب أن تُنبئ تلك القصائد عن عبقرية كُتابها مما يعني ضرورة أن يشار لهم بالبنان كشعراء فطاحل، وهو الشيء الذي تفصح عنه قصائدهم المختارة.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: هل يمكن أن يخلو ذلك الانتقاء والاصطفاء من "التحيز والذاتية" كما يزعم بالجراف؟ فمثلاً نجد أن طبعة عام ١٨٦١م "للمجموعة الذهبية" قد خلت من أي إشارة لشاعر الطبقة العاملة الثوري وليم بليك William Blake (١٧٥٧-١٨٢٧م)، وما هو جدير بالإشارة هنا هو عدم إدراج قصائد لشاعرات في الطبعات الأولى، فهل يدل ذلك على ضرورة أن ينتمي الشاعر لطبقة ما أو جنس ما لكي يُلقي بالجراف لقصائده بالاً فيدرجها في مجموعته؟

ت . س .إليوت وأسرة ليفيز والأعمال الأدبية المرجعية

T. S. Eliot, the Leavises and the Canon

تشكل هذه الاتجاهات المراحل الأولى التي تطورت من خلالها الأعمال الأدبية المرجعية الحديثة التي نمت جنباً إلى جنب مع اللغة الإنجليزية في عشرينيات القرن العشرين، أي أن أفكار القيمة والأصالة والمرجعية ترتبط بشدة بقضية القومية، وكما ذكرنا في الفصل الأول فإن أبرز المفكرين الذين أسهموا في ذلك التطور هم ت. س. إليوت (١٨٨٨- ١٩٦٥م) و ف. ر. ليفيز (١٨٩٥-١٩٧٨م) و ك. د. ليفيز (١٩٠٦-١٩٨١م).

على الرغم من سيادة النظرة لإليوت على أنه شاعر بالأساس إلا أن مقالاته عن النقد الأدبي في عشرينيات القرن العشرين كان لها تأثير بالغ لدرجة أن إ. م. و. تليارد -وهو ناقد معاصر لإليوت- وصفها "بالثورية"، حيث يشير إليوت في أشهر تلك المقالات "التقاليد و الموهبة الفردية" Tradition and The Individual Talent -المنشورة على جزئين عام ١٩١٩م - إلى أن كل أديب يكتب من منطلق تقاليد معينة:

> "ولا تقتصر تلك التقاليد على ما ساد جيله فقط، بل تتعدى ذلك لتشمل إحساسه بأن كل أدب أوروبا منذ أيام هوميروس Homer حتى لحظة كتابته للعمل -بما في ذلك أدب دولته- موجود بشكل آني في نظم فريد يظهر جلياً في النص الجديد."

يري إليوت أن التقاليد لا تخص الماضي فقط بل هي كائن حي تنتظم مكوناته في عقل الكاتب المخضرم -أو حتى في جيناته الأدبية- (يلاحظ كثرة استخدام إليوت لضمير الغائب المذكر "هو" للإشارة لذلك الكاتب). أطلق إليوت فيما بعد على تلك "التقاليد الحية" للأدب العظيم مصطلح "النظم المثالي" ideal order الذي تترتب فيه الأعمال الأدبية القيمة والعظيمة. وهذا ما نقصده بالمرجع الأدبي تماماً، فمثلاً نرى إليوت يجزم بوجود تلك الأعمال العظيمة التي نريد دراستها أو نسعى لكتابتها في شكل قصيدة أو رواية أو مسرحية "بنظمها المثالي" في "جيناتنا الأدبية". مؤدى ذلك أن تلك الأعمال الأدبية المرجعية تعد جزءاً من هويتنا الأدبية وليست شيئاً نفكر فيه، فلقد استوعبنا وحفظنا وقبلنا ليس فقط الأعمال المرجعية التي حكم عليها أناس —كبلجراف- بالعظمة، بل وحتى أيضاً المعيار الذي استخدم لإصدار ذلك الحكم وهذا هو الأهم.

تمخض عن فكرة إليوت أمران، أولهما يخص ما تفرضه عليك تلك النصوص المرجعية. فمثلاً يجب أن تكون نصوص القائمة الكلاسيكية يونانية أو رومانية قديمة وليست أعمال مزورة أو مخترعة، تماماً مثلما تفرض الكتب السماوية على القارئ حقيقة أنها المصدر الأساسي الصحيح لوحي السماء. لكن ما مدى أصالة تلك الأعمال الأدبية المرجعية؟ يرى إليوت ومَنْ تأثر به أنَّ ما يجعل العمل الأدبي عظيماً هو ما يحتويه ذلك العمل من قيم الثقافة والحياة الأوروبية الغربية (بما فيها الإنجليزية) وهو ما ينبئ عن "أصالة" العمل، لذا فالعمل الأدبي المرجعي كما يراه إليوت عبارة عن "مخزن للقيم الغربية" التي تتميز بأنها قيم إنسانية عالمية تنطبق على كل البشر في مختلف العصور والبلدان.

أما ثاني النتائج فهي عدم اعتبار العمل ذا قيمة إذا لم يشتمل على تلك القيم "العالمية" أو كان يدعو لقيم غيرها مما يوجب استبعاده من الأعمال الأدبية المرجعية. وتوحي استعارة إليوت التي يُشبه فيها التقاليد بعظام الإنسان التي تحتوي على جيناته الأساسية بفكرة أخطر -رغم السذاجة التي تبدو عليها للوهلة الأولى- فلا يكفي مجرد دراسة المراجع بل يجب أن تحملها جيناتك داخل عظامك، بمعنى أنك إن افتقرت لفكرة الأعمال الأدبية المرجعية والقيم الأوروبية الغربية "العالمية" التي تحويها تلك الأعمال، فلن يمكنك فهم أو إنتاج كتب عظيمة. ويلخص ثلاثة كتاب ونقاد أفارقة هم شينويزو Chinweizu وأونوشيتوا جيمي Onwuchetwa Jemie وإيشوكو مادوبويك Ihechukwu Mabubuik في كتابهم "تحرير الأدب الأفريقي" The Decolonization of African Literature ذلك الاستنتاج الخطير بقولهم:

> "تتبلور معظم الاعتراضات...الموجهة للرواية الإفريقية في كونها توبيخات من الدجاجات الاستعمارية الأم لأسيراتها الثورية واضحة التمرد بأن "يكونوا عالميين"[(١)]، والكتابات التي لا تتصف بالعالمية تعد كتابات رجعية (أي تعود لمراحل بدائية من عمر البشرية) أو تعزز اتجاهات أنثربولوجية أو سيرة ذاتية أو اجتماعية أو صحفية أو ذات

(١) أي أن منظري الدول الغربية قد فرضوا أيديولوجياتهم على الدول المستعمَرة بزعم أنها مسلمات عالمية.

موضوع مؤقت وليست كتابات أدبية يمكن وصفها بالمرجعية."

نقولها ثانيةً، إن ما لا يدعو إلى القيم الغربية (التي ترتدي قناع العالمية) لا يعد أدباً أصيلاً ولا يستحق القراءة أو أن يكون جزءاً من الأعمال الأدبية المرجعية.

تطورت الفكرة على يد ف. ر. ليفيز الذي انتهج مذهب إليوت فحدد قائمة "بالكتَّاب العظماء" وبدلاً من أن يوضح أن اختياره لهم نابع من هواه، أكد على أنهم أفضل الكُتَّاب قاطبة، فمثلاً نجده يبدأ كتابه الأكثر تأثيراً "المرجعية العظيمة" The Great Tradition (١٩٤٨م) بقوله: "إن أعظم الروائيين الإنجليز هم جين أوستن Jane Austen وجورج إليوت George Eliot وهنري جيمس Henry James وجوزيف كونراد Joseph Conrad". وعلى الرغم من اعترافه بوجود آخرين متميزين، إلا أن هؤلاء الأربعة لهم الصدارة وذلك لاتفاق القيم التي يدعون لها مع ما يؤمن وينادي هو به. لذا لا يمكن الوقوف على أسباب اختياره لهم، فهو يدعي "أنهم عظماء لدعمهم للوعي الإنساني بالإمكانيات الحياتية" وأنهم "عظماء مبدعون كما ظهر من تميزهم في عصورهم".

قد يبدو ذلك الرأي مقنعاً لكن يشوبه الغموض إلى حد ما. فإذا كان من المهم أن نقف على الكتب الأكثر قراءة وشهرة كالتي أشار لها ليفيز وزوجته، فإن التأكيد عليها على هذا النحو يعطيها حق الادعاء بأنها القائمة المرجعية الوحيدة التي يجب أن يُجمع الكل عليها. هنا يتجلى وبشكل واضح ما أشرنا له آنفاً من أن أحكام مثل هؤلاء النقاد تتصف بالذاتية رغم زعمهم بأنها موضوعية لمجرد افتراضهم أن تلك القيم الإنجليزية والأوروبية يجب أن يشترك فيها الجميع. يعد تنمية الوازع

القومي أحد الأسباب التي دفعت ليفيز للمناداة بدراسة الإنجليزية وهو العامل الأساسي وراء اختيارهم للأعمال الأدبية المرجعية.

كيف تؤثر عليك الأعمال الأدبية المرجعية؟

How does the Canon Affect you?

الأعمال الأدبية المرجعية اليوم The Canon Today

مازالت الأعمال الأدبية المرجعية موجودة بيننا حتى يومنا هذا، فهي تتغلغل في نسيج الإنجليزية كمادة دراسية وفي كل أشكال الثقافة، ويتجلى ذلك في مراعاة الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية لانتقاء موضوعاتها من روايات "لها مرجعية أدبية"، كما يتضح أيضاً في إعادة دور النشر طبع "الكلاسيكيات" بحيث إذا أردت أن تكون مثقفاً فعليك أن تقرأ عدداً لا بأس به من "الروايات المرجعية". لكن من أين تستمد الأعمال الأدبية المرجعية كل ذلك النفوذ والتأثير؟

السبب الأول هو انطباع الإنجليزية بالطابع الاجتماعي الذي لا يمكن دراستها بمعزل عنه، ولذلك تمثل الأعمال الأدبية المرجعية نقطة الالتقاء بين (١) الأحكام المتعلقة بالقيمة الفنية (أو "الجمالية") للنص (٢) والأفكار والاهتمامات المعلنة وغير المعلنة لمن يصدرون تلك الأحكام ولديهم سلطة تعميمها. وما يجعل القضية أكثر تعقيداً هو صعوبة الفصل بين الحكم على القيمة الفنية أو الجمالية والحكم القائم على الهوى والمرجعية على الرغم من كل المزاعم بتحري "الموضوعية أو الحيادية" فكليهما متشعب في الآخر.

أما السبب الثاني فيكمن في قدرة الأعمال الأدبية المرجعية على الاستمرارية والاستقلالية، حيث تظهر المرجعية في كل مستويات الإنجليزية الدراسية مراراً وتكراراً وعاماً بعد عام، فها هو الشخص الذي درس الإنجليزية ثم أصبحت وظيفة له فيما بعد يختار نفس النصوص التي درسها وذلك لرسوخ فكرة أن تلك النصوص هي الأكثر أهمية في ذهنه. عندما كنا تلاميذ انصبت توقعاتنا

الدراسية حول نصوص سمعنا عنها وافترضنا أن تكون جديرة بالدراسة، أضف إلى ذلك ما وقع تحت أيدينا من مصادر تعليمية كالكتب وأشرطة الفيديو التي تدعم نفوذ تلك النصوص الأدبية المرجعية مما يسهل عملية الدراسة ذاتها (فما الذي يدعو دار نشر للاهتمام بطبع كتاب دراسي لرواية قليلة القُراء؟) هناك العديد من الكتب الدراسية الخاصة بالإنجليزية والأدب بصفة عامة والتي تُظهِر تآلفاً مع فكرة الأعمال الأدبية المرجعية، مما يؤكد على رسوخ فكرتها في الأذهان، وكم رأينا في أوائل القرن العشرين من مقررات دراسية مصممة من واقع قوائم ووصف مقررات لتلك الكتب العظيمة. ففي عام ١٩٩٤م صدر كتاب "الأعمالُ المرجعيةُ الغربيةً" The Western Canon للناقد الأمريكي هارولد بلوم Harold Bloom كأحدث قوائم الأعمال الأدبية المرجعية، لذا يعد هذا الكتاب خير نصير لتلك الفكرة حيث ينتهي بقائمة الألف كتاب الذي ينبغي (في اعتقاده) على كل "مثقف" أن يُلِّم بها. من هنا يمكن تعريف الأعمال الأدبية المرجعية بأنها الكتب التي يتوقع أن تدرسها أثناء دراستك للإنجليزية، وبذلك تكون قراءة الأعمال الأدبية المرجعية مرادفة لدراسة الإنجليزية فكلاهما يُعَرِّف الآخر.

على الرغم من ذلك فإن الذين يعدون وينشرون قوائم "الكتب العظيمة" يُقرُّون بقابلية تلك القوائم للتغيير أحياناً طبقاً لاختلاف النظرة لبعض الكتب سواء بالقبول أو الرفض، لكن السبب الثالث وراء التأثير القوي لفكرة الأعمال الأدبية المرجعية هو قدرتها على "تحديد معايير الحكم على النصوص" فمثلاً تقول هيئة المواصفات والمناهج بضرورة اختيار نصوص دراسية ذات "ارتباط وثيق وجودة عالية لتحقق الأهداف العامة المرجوة من ورائها" في حين لا تحدد تلك الهيئة أية معايير لتحديد مدى هذا الارتباط وتلك الجودة. لذلك يتم الحكم على النصوص

الجديدة أو المعاد اكتشافها وفق معايير الأعمال الأدبية المرجعية، مما يعني أن لجنة وضع اختبارات المقررين AS \A2ستأخذ في الاعتبار أموراً عدة "كأهمية الكتاب وعالميته" و"القيم الايجابية" أو "الأهمية الإنسانية" التي يدعو إليها حين تختار كتب بعينها من بين عدد كبير من النصوص. إن القول بأن رواية جديدة ستدخل ضمن قائمة الأعمال الأدبية المرجعية لاحتوائها على تلك المعايير يؤكد فكرة أن الروايات القديمة بهذه القائمة قد احتوت عليها أيضاً؛ لذا تتميز تلك القائمة بالتكرار والجمود.

السبب الرابع هو إشباع فكرة وجود قائمة بالأعمال الأدبية المرجعية لمشاعر الهوية الوطنية التي تسعى إلى تأكيدها الدول والمجتمعات التي كثيراً ما ناضلت من أجل هويتها، وبذلك نجد أن تطور فكرة الأعمال الأدبية المرجعية قد ارتبط بتطور القومية. ولنفس السبب كتبت توني موريسون Tony Morrison (المولودة عام ١٩٣١م) الروائية الأمريكية الحائزة على جائزة نوبل في عام ١٩٨٩م:

> "إن بناء الأعمال الأدبية المرجعية هو بناء للإمبراطورية، والدفاع عنها هو دفاع عن القومية، كما أن الجدل المتعلق بالمراجع الأدبية -على اختلاف نطاقه وطبيعته ومجالاته (كالنقد أو التاريخ أو تاريخ المعرفة أو تعريف اللغة أو عالمية المبادئ الجمالية أو الدور الاجتماعي للفن أو الخيال الإنساني)- يجسد الصراع بين الثقافات، فكل يغني على ليلاه."

تلعب الأعمال الأدبية المرجعية دوراً مهماً في خلق الشعور بالثقافة المشتركة والهوية الوطنية للمجتمع لتكرار دراسة نصوصها والاختبار فيها ونشرها وبيعها والإقبال على شرائها وتمثيلها وتحويلها إلى مسلسلات تلفزيونية وكذلك تهيئتها وفق الظروف المعاصرة في صناعة السينما ودور النشر وما شاكل ذلك، لذا فتحديد النصوص الموجودة بتلك القائمة هو تحديد لهويتنا وللطريقة التي نود أن نرى بها أنفسنا، مما يوحي بأن أي تهديد لتلك الأعمال هو تهديد للهوية القومية. لكن هل يسألك واضعو المنهج عن الطريقة التي تود أن ترى بها نفسك؟ وكما تقول توني موريسون : "كل يغني على ليلاه".

مستقبل الأعمال الأدبية المرجعية Canons Tomorrow

يجب اتخاذ قرارات بشأن ذلك الكم الكبير من الكتب التي يجب قراءتها في مقرر دراسي ما، لكن تلك القرارات ستثير جدلاً واسعاً لما يحتويه كل نص من أهمية خاصة، ولذلك يعتقد بريان كوكس Brian Cox –الشخصية الأشهر في تطوير الإنجليزية كمادة دراسية منذ ستينيات القرن العشرين وحتى يومنا هذا– أن "أفكارنا عن الأعمال الأدبية المرجعية تتغير باستمرار، ولا يجب أبداً أن ينظر لقائمة الكتب العظيمة على أنها مرسوم برلماني أو نقش أثري على حجر"، ومما أثار حفيظته أنه اكتشف عند مراجعته للمناهج عام ١٩٩٢م "أنها قلما تشتمل على كُتَّاب غير بريطانيين وأنك قد تصادف أسماء مثل ديرك والكوت Derek Walcott هنا أو هناك في إشارة عابرة (والكوت هو شاعر ومسرحي حائز على جائزة نوبل، ولد في سانت لوشيا بجزر الكاريبي عام ١٩٣٠م ويكتب بالإنجليزية). أرى أن الجدل حول الأعمال الأدبية المرجعية ووصف المقررات سيستمر، لكن تغيير تلك

القائمة سيتم بشكل بطيء وفق تبني نظريات وأفكار جديدة تؤثر على اختيار الكتب التي تُدَرَّس.

الجدير بالذكر أن "فكرة" الأعمال الأدبية المرجعية ما تزال بنفس القوة والنفوذ فإذا تفككت القائمة الأم سينتج عنها عدد من القوائم المنفصلة كقائمة الكتابات الأفرو-أمريكية والكتابات النسوية وكتابات الخيال العلمي، كما أضحت الكتابات المهمشة قديماً ذات أهمية كبرى الآن ولها قوائم مستقلة بذاتها. من هنا يتمتع دارسو الإنجليزية اليوم بقدر كبير من الحرية في تغليب قائمة على أخرى.

تحثنا قوة تأثير الأعمال الأدبية المرجعية على مراجعة الكتب التي نقرأها: كيف أدرجت في القائمة؟ ولماذا؟ وما هي القيم التي تَمَثَّلها مَن اختار تلك النصوص؟ وكجزء من عملية المراجعة هذه سأتناول الآن الشخصية الأشهر في قائمة المراجع و التي تكاد تكون المحور(قد يختلف معي البعض) في نظام تدريس الإنجليزية نفسه ألا وهو وليم شكسبير William Shakespeare.

ملخص

Summary

- لا يوجد تعريف جامع مانع "للأدب" لأن الأدب يقاوم أي محاولة لتصنيفه.
- أحياناً ما نحكم بجهل على قيمة الأعمال الأدبية ومنها أن الأدب يجب أن يعني الكتابة المهمة وعالية القيمة.

• تعرف قائمة "الكتب العظيمة" التي يجب أن تقرأها وتعجب بها "بالأعمال الأدبية المرجعية"، وتعتمد عملية اختيار النصوص في تلك القائمة على أفكار الأصالة والمرجعية والهوية الوطنية والقيمة الأدبية (وهي أمور تحتاج لإعادة النظر فيها).

• ما تزال فكرة الأعمال الأدبية المرجعية تعيش بيننا وتسيطر علينا فهي تتغلغل في نسيج الثقافة الغربية لأنها نقطة التلاقي بين الأحكام الفنية على العمل والأفكار المسبقة عنه وتتمتع بقدر كبير من الاستمرارية والاستقلالية، كما تحدد معايير الحكم على النصوص واختيارها للدراسة. وأخيراً فهي تذوب في شعورنا بالهوية القومية.